الطبيعة وأثرها على الإنسان في الجزائر

د. خليفي عبد القادر،

قسم التاريخ، جامعة وهران.

الطبيعة والإنسان وجهان لعملة واحدة، تتآلفان حينا وتتنافران حينا آخر. تسيطر الطبيعة على حياة الناس فتوجه حياتهم وفق مشيئتها، ويصبح الإنسان ملك قَدَرها. ثم يسيطر عليها هو فيتراءى له الفوز والنصر عليها، ولكن الأيام دول؛ فمثلما تتصارع الأمم للتحكم في مقدرات هذه البسيطة، يعيش الإنسان في صراع دائم مع النظم الجغرافية من أجل السيطرة عليها بكبح جماحها وتسخيرها لخدمة الحضارة والتمدن. فهل وفق الإنسان في ذلك؟ ولمن تكون الغلبة؟

لم يظهر الإنسان على وجه هذه الأرض حتى توفرت كل ظروف العيش المناسبة، من ماء وهواء وأرض خصبة مناسبة للاستقرار. فبدأ يتدبر حياته وعيشه، بفضل ما أوتي من قوة العقل ومضاء العزيمة، وأصبح عاملا مؤثرا مغيرا لسطح الأرض، لكنه وفي الوقت نفسه خاضعا لظروفها الجغرافية.

ولهذا فإن للظروف الجغرافية أثر واضح على الحياة البشرية منذ أن وُجد الإنسان على وجه هذه الأرض؛ فقد حَمَتْهُ هذه الظروف من أعدائه في أوقات كان أحوج ما يكون إلى المساعدة، سواء خوفا من بني جنسه أو من الحيوانات المفترسة التي تتربص به. فقد كانت الكهوف والمغارات والأماكن الوعرة ملجأ له وحماية من كل ما يكدر عيشه. إلا أن هناك مظاهر جغرافية يصعب على الإنسان تخطيها بسهولة كالبحار والأنهار والبحيرات والجبال، كما أن الصحراء المترامية الأطراف والشديدة الجفاف تفتقر إلى النبات والماء الذيْن يُعَدّان من وسائل الاستقرار، لهذا كانت الصحاري عامل طرد للإنسان على مر الأزمنة.

لقد بدأت أولى الحضارات في الأماكن السهلية؛ حيث الأراضي المساعدة على الاستقرار والاستغلال، وعاشت فيها الأجناس المتحضرة الأولى، وهي في جماعات أكبر من الأسرة ومن القبيلة، ولكنها مجتمعات صغيرة، كَوّنت وحدة تشعر بكيانها وذاتيتها.

والبحر الذي لا يتيسر اتخاذه مقرا، كان على الإنسان، الذي يريد اجتيازه ومعرفته، أن يكون على قسط هام من المدنية. وقد كان البحر الأبيض المتوسط المدرسة الأولى لتعليم الملاحة البحرية للإنسانية، لأنه يتوسط العالم القديم، بالإضافة إلى هدوئه النسبي

وقلة أمواجه؛ لذلك عَرَفه الفينيقيون عمليا وجابوا أطرافه المختلفة باعتبارهم أمة من تجار البحار.

كما أن للأنهار أهمية كبيرة في الاستقرار، ولنهر النيل أثر كبير في قيام حضارة في وسط صحراوي. كما أن لنهري دجلة والفرات أثر مماثل في قيام حضارتين قديمتين هما: البابلية والأشورية، ولأنهار الصين والهند المتعددة، الأثر نفسه.

أما الحضارة اليونانية فكانت ذات طابع بحري لوقوع البلاد في وسطٍ جزري مائي، ولذا أصبح البحر لدى اليونانيين وسيلة اتصال بالعالم. كما أن الاستعمار الحديث ارتبط أكثر بدول غربي أوربا البحرية الساحلية، بينما كانت بقية الدول الأخرى بعيدة عنه؛ وهكذا ارتبط الاستعمار الحديث بالمحيط ونداء البحر والموقع الساحلي.(حلمي شعراوي. 1981: 65.)

وللطبيعة أثر كبير في توجيه ما عليها، فتأتي المناطق المقامة عليها انعكاس للموضع، فهناك ملتقيات الأنهار التي تمتد على مختلف فروعها المباني، مثل مدينة الخرطوم الواقعة عند ملتقى نهر النيل الأزرق بالنيل الأبيض، فتشكلت المدينة حسب الموضع، إذ هناك الخرطوم وخرطوم بحري وأمّ درمان. وهناك مدن مقامة على جزر، كما هو الحال في مدينة البندقية –فينيسيا- الإيطالية، الواقعة في مصب نهري البو Po وبياف Piave والمفصولة عن البحر بشريط ساحلي. وهي تتمثل في مائة وثمانية عشر بناية، مقامة على مائة وعشرين جزيرة، يربط بينها أكثر من أربعمائة جسر تسمح بتواجد مائتي قناة كشوارع، فالنقل هنا مائي في أساسه.(أنظر: Encarta 2007) وهكذا تأقلم الإنسان مع المكان، وأصبحت تربط بين الاثنين علاقات وثيقة.

وقد تكلم ابن خلدون في مقدمته عن ذلك، مبينا اختلاف البشر باختلاف المواطن وأثر البيئة في المجتمع، ويعتبر بحثه الأول من نوعه في القرن الرابع عشر ميلادي.(عبد الرحمن بن خلدون، ب ت: 82- 91) واعتبر مونتيسكيو الإنسان كائنا فردا أو وحدة طبيعية تقابله قوتان هما الأرض أو التربة والمناخ. وتكلم عن السهول الخصبة التي هي موطن المزارعين المستقرين الذين لا يطيقون انفصالا عن الأرض. ومِثل هذه السهول تُغري الأقوى بأن يفرض سلطانه على المستضعف الذي لا تهمه إلا الأرض وإنتاجها المنتظم. ويقول: "أما سكان الجبال فليس لديهم ما يخشون عليه إلا القليل، ولذلك كانوا أجْرَأ وأقوى جَنَانا، ومن ثم كانت بلادهم تنعم بحرية سياسية.." (Montesquieu, V1, 1994:319-320.) كما فسر دارْوِينْ العلاقة القائمة بين الكائن الحي والبيئة بأنها علاقة ملاءمة وتكيف...

وقد ارتبط التاريخ كثيرا بالمكان؛ إذ من الواضح أن "لكل حادث مكان يقع فيه، وفكرة المكان، وهي أبسط ما توحي به الجغرافيا، ترتبط بأبسط فكرة عن التاريخ ارتباطا وثيقا."(جيمس فيرجريف، 1956: 16).

ومن استعراض هذه الآراء نرى أن التفاعل قائم بين الإنسان والطبيعة في كل مكان وفي كل زمان. وسنقسم أثر هذه النظم في المجتمع الجزائري إلى ثلاثة أقسام:

1- أثر التضاريس.

2-اثر المناخ.

3-اختلاف المسكن.

1- أثر التضاريس:

كانت التضاريس من أهم العوائق التي اعترضت سبيل الإنسان في التنقل من مكان إلى آخر، بل إن اختلاط الشعوب كثيرا ما أعاقته العقبات التي يقيمها التضريس في وجه حركة الأشخاص والسلع.(رينوفان وجان باتيست دوروزيل، 1982: 19.) ويحدثنا التاريخ عن العديد من الأمثلة في هذا المجال. وها هم العرب الفاتحون لم يتمكنوا من السيطرة على بلاد المغرب لنشر الإسلام، إلا بعد أكثر من خمسين سنة من المجابهة مع سكان المنطقة(20- 90هـ) بسبب تضاريس المنطقة الصعبة التي يصعب اجتيازها؛ كما كانت هذه التضاريس حصنا منيعا لهؤلاء السكان في وجه غزاة عديدين على مر التاريخ القديم والحديث. ونتيجة لتشابه المظاهر الجغرافية لبلاد المغرب العربي ساعد ذلك على عزل هذا المجتمع؛ وبالتالي ساعد على احتفاظ سكانه بأخلاقهم ومثلهم دون تغيير رغم مكائد الغزاة.

والتضاريس تؤثر في توزيع السكان وانتشار طرق المواصلات ومواقع المدن والحياة الاقتصادية.

إن ارتباط الكثافة السكانية بالعامل الجغرافي تتضح في "أن هناك مناطق جالبة للسكان وأخرى تعتبر دافعة لهم، ومنها المناطق الجافة أو شبه الجافة ثم المناطق الجبلية؛ حيث الحياة القاسية وكذا الفقر يدفعان –القاطنين بها- نحو حياة أقل قسوة. وعلى الرغم من ذلك فإن هذه المناطق وأساسا الجبلية شكلت على مر الحقب ملجأ، بل مركز استقرار واستقطاب للسكان."(نور الدين الموادان، 2001: 38.) وأفضل مثال يتضح في هذا المجال هي منطقة البحر الأبيض المتوسط التي تعتبر بعض مناطقها المرتفعة الفقيرة متنفسا وملجأ لهجرات قروية عديدة.

فبين أحضان هذه الجغرافيا الجبلية يقيم سكان القبائل والأوراس إقامة دائمة بتجمعات سكانية موزعة بطريقة مميزة. وتفصل التجمعاتَ بعضها عن بعض حدودٌ جغرافية نحتتها الطبيعة بوِدْيانها وممراتها المائية وانهيارات تربتها.(طراحة زهية، 2006/2005: 41).

والجبال عامة قليلة السكان لقلة مواردها الغذائية، وجبال الجزائر مثلا، يقل عدد سكانها نسبيا لقلة موارد العيش فيها، وبخاصة في الجهة الغربية؛ أما في جبال القبائل والأوراس فنجد السكان أكثر من المتوقع –كما ذكرنا سابقا- ويعود هذا إلى التمسك بالعادات والحفاظ عليها، كما أنها معاقل يصعب على العدو الوصول إليها، لأن وعورتها وصعوبة الحركة فيها كان سببا في الالتجاء إليها واتخاذها مسكنا.

وكان من نتائج هذه العزلة بقاء اللهجة القبائلية والشاوية متداولة حتى الوقت الحاضر، مع زوالها من الجهات الأخرى لصالح التعريب. وقد طبعت البلاد السكان في هذه المناطق بحب الاستقلال والتعلق باللامركزية، وهم يزرعون هناك شجيرات بعض الفواكه الملائمة للمناخ وبخاصة الزيتون والتين والكروم والمشمش واللوز والجوز وأشجار القسطل، وتجفف غالبا ثمار هذه الفاكهة وتحفظ، إلى جانب استخراج زيت الزيتون، وهي ممارسة فرضتها الظروف المحلية التي عودت الناس على الادخار من اليوم الأبيض لليوم الأسود. كما أن "الانتقال من قرية إلى أخرى يتطلب الهبوط والصعود، وبما أن الأمر كذلك فإن سبل الاتصال ضئيلة جدا ووسائل النقل غير ميسورة. وقد أدى هذا إلى أن طبيعة الوسائل بسيطة وبدائية يستحيل معها نقل المواد الثقيلة، ولهذا نجد أن كل قرية تتدبر أمر عيشها بنفسها"(René Maunier, 1930:41) وأصبح الحيوان حاملُ الأثقال هو الوسيلة المناسبة والمفضلة لدى سكان هذه المناطق.

كما يمتلك سكان هذه المناطق بعض قطعان الماشية من أبقار وماعز وبخاصة منها الأنواع المتسلقة للمرتفعات. بينما يقل تواجد الأغنام التي لا تساعدها المرتفعات الجبلية.

وتبدو القرى الشامخة البعيدة في كثير من الأحيان عن الساحل والوديان والسهول وكأنها ناطحات سحاب صنعتها تضاريس الطبيعة وشيدتها يد الإنسان.

وتعتبر جبال الأطلس الصحراوي حاجزا طبيعيا بين الصحراء والتل؛ حيث تتوقف عندها الرمال مما خلق، وراءَها من الشمال، مراعٍ لسكان السهوب.

وليست جبال الأطلس الصحراوي مانعة كل اتصال، بل هي متقطعة تقسمها الأودية من الشمال إلى الجنوب، والتي تتجه نحو الساحل من الأطلس التلي، وتتجه نحو الجنوب من الأطلس الصحراوي، إذ تتبعت، هذه الأودية، الممراتَ التي تتخلل الجبال، والتي

كانت ممراتٍ للقوافل، وأصبحت اليوم وسيلة لمد طرق المواصلات.(حليمي عبد القادر علي، 1968: 46.)

وهكذا أنشئت شبكة المواصلات لربط الشمال بالجنوب، ووَصلت السكة الحديدية في الغرب الجزائري إلى مدينة بشار مجتازة ممرات في الأطلس الصحراوي بالقرب من عين الصفراء. كما أن الخط الحديدي الرابط بين قسنطينة وتوقرت يمر قرب مدينة بسكرة؛ حيث تكاد تتعدم الجبال فيكون ممرا طبيعيا.

وقد كان للجبال ولغاباتها أثر لا يستهان به في استغلاله من قبل جنود جيش التحرير الوطني أثناء الثورة التحريرية 1954- 1962. فهي منطلق لرجال المقاومة والتحرير، وكانت حرب العصابات هي الحرب المناسبة للمكان. لذا عمل الاستعمار على إفناء الغابات وتدمير القرى في الأرياف تدميرا شاملا. وقد عودت هذه الجبال صقورها على أن يكونوا أقوياء نفسيا وجسميا، فانتصروا على أكبر قوة استعمارية في الوقت الحاضر.

والسهول في الجزائر محصورة بين الجبال، وهي سهول متقطعة، تتصل بالساحل أو تفصلها عنه كثبان رملية، كسهل متيجة ووهران وعنابة. إلا أن ما يفسد الفلاحة هو انتشار الشطوط، وهي عبارة عن برَكٍ من الماء مالحة تتسع خلال موسم المطر، وتنحصر صيفا في حدود أقل. في هذه السهول يكثر السكان، حيث تساعدهم الأرض على العمل بالزراعة، فتُدر عليهم خيراتَها من خضر وفواكه تنتشر في بساتينها المترامية هنا وهناك.

ومنها سهول داخلية كسهل تلمسان وسهل بلعباس وسهل قسنطينة، حيث يقوم السكان بزراعة الحبوب والكروم، كما يمكن إضافة سهول تيارت وسعيدة وسطيف في ميدان زراعة الحبوب من قمح وشعير، وهي زراعات واسعة تتلاءم وطبيعة المكان.

أما السهول المرتفعة المنحصرة بين الأطلسين التلي والصحراوي، فقد كان لطبيعتها أثر في توجيه سكانها، فهم مربو ماشية، وهو العمل الرئيس عندهم، إلا أنهم يزرعون الأرض في السنين الممطرة حَبّا، فتغدق عليهم من خيراتها. وقد حمت جبال الأطلس الصحراوي هذه الجهة من زحف الرمال نسبيا –كما ذكرنا ذلك سابقا- مما وفر لها غطاء نباتيا إستبسيا من حشائش ونباتات أصبحت غذاء للأغنام التي هي مصدر لاستهلاك اللحوم في الداخل وموردا للتصدير إلى الخارج. وتمتد هذه المنطقة بشكل طولي على مسافة تبلغ حوالي 700 كلم، من ولاية تلمسان والنعامة غربا إلى ولاية تبسة شرقا. وهي واسعة في الغرب، تضيق تدريجيا كلما اتجهنا نحو الشرق.

وقد تَحَكم موقعها الداخلي بين الأطلسين التلي والصحراوي في مواردها المائية، فأصبحت ذات تصريف داخلي، تصب أوديتها في الشطوط، والتي يرجع أساس تكوينها إلى الزمن الجيولوجي الأول.

ويخبرنا الأستاذ قوتييه أن جماعات رعوية اضطرت إلى ترك الرعي بعد أن تعرضت ماشيتها للأوبئة، ففنيت ثم عادت بعد ذلك إلى حرفتها بعد أن تحسنت حالتها، لأن مربي الماشية غالبا ما تتعرض أراضيهم للجفاف فتفنى ماشيتهم؛ لذا فإن توفير المياه بعد حفر الآبار وإقامة السدود، تعتبر عاملا مطمئنا للسكان، وإلا فإن الكارثة تنعكس على الاقتصاد بجملته. وتنتشر البطالة فيلتجئ البعض إلى العمل بقطف الحلفاء التي تتدنى أجرتها رغم صعوبة القيام بقطفها.(محمد السيد غلاب، 1969: 89.) إلا أن الجفاف الذي أصاب المنطقة قد حدد من مساحة هذا النبات.

وتمتد الصحراء جنوبي الأطلس الصحراوي، وهي عبارة عن أحواض مغلقة أو عروق رملية أو حمادات، وهي منطقة قليلة العشب شحيحة بمياهها؛ لذلك لا نجد بها أثرا للسكان، إلا في مناطق محدودة هي الواحات. وتمثل الصحراء الجزائرية أكثر من 80 في المائة من المساحة الإجمالية التي يقطنها حوالي نسمة واحدة في الكيلومتر المربع الواحد، يتركز معظمهم في تلك الواحات ذات المياه الباطنية، يزرعون الخضر والفواكه، ويعتمد البعض منهم على زراعة نخيل التمر التي تنتشر على طول وادي الساورة في الغرب وفي واد ميزاب وتوقرت والمنيعة وعين صالح ووادي سوف نحو الشرق.

وقد طبعت الصحراء سكانها بالصبر والاحتمال، كما أن سهولة الحياة بها، عكس ما هو في المدن، جعل منهم أناسا كُرماءَ شجعانا يتصفون بالأخلاق الحميدة والبساطة وحب الغير. وقد كانت للصحراء أهمية كبيرة في ربط الواحات بعضها ببعض من جهة، وربطها بالمجتمع الإسلامي شرقا عن طريق ورقلة وواحة برقة وطرابلس إلى واحات مصر. ونتج عن هذا الترابط وجود العمران منذ دخول الإسلام. كما قامت واحات توات بدور إيجابي في ربط البلاد السودانية(مالي) بالجزء الشمالي من الجزائر إلى وقت قريب. فقد كانت قوافل الإبل تنطلق من البيض ومشرية وعين الصفراء في اتجاه واحات قورارة وتوات حاملة معها بعض السلع الغير متوفرة هناك لتقايضها بسلع أخرى متوافرة بالمنطقة أو مستوردة من إفريقيا وراء الصحراء، تحتاجها المناطق الثلاث. (Gendre. F. 1910: 218) وكانت هذه الجهات وسيطا تجاريا لأن قافلة الشتاء السابقة نحو الجنوب ستصبح صيفية نحو المنطقة التلية شمالا.

إن أهمية الصحراء جعلت الثورة الجزائرية في مفاوضاتها قبل الاستقلال تتمسك بها وتقدم المزيد من التضحيات، بالإضافة إلى ما عثر فيها من بترول وغاز طبيعي سيساعد التنمية في الجزائر.

وإذا كان الماعز في المناطق العالية والأغنام في السهول فإن الإبل مقرها الصحراء، تلك الأرض المستوية الرتيبة، يستغلها السكان فيحملون عليها أمتعتهم عند الرحيل والتنقل، وينتفعون بوبرها في لباسهم ومن حليبها في مأكلهم ومشربهم، إلا أن الحضارة الحديثة وبخاصة منذ الاستقلال قد غيرت من إنسان الصحراء في مجمل المناطق، فبفضل اكتشاف البترول اجتذبت الصناعة البدو نحو الحياة الجديدة، فتعلم البعض المهن وأصبحوا يعملون بآلات ومعدات حديثة، وبذلك خف نظام القبيلة وأصبح الفرد يخضع للشركة ولعمله بدل الخضوع للجماعة أو لشيخ القبيلة.

2- أثر المناخ:

المناخ من أهم النظم الجغرافية أثرا على الإنسان، فهو الذي يفرض حدودا على إنتاج أرضه ويعوق حركته ويشل مواصلاته(عبد الفتاح محمد وهيبة، 1971: 99.)

ويتحكم في سكناه مهما أوتي من قوة مادية وتطور تكنولوجي. وهو الذي يخلق للإنسان ردود فعل عضوية وعمليات تكيفية تزود الجسم البشري بوسائل وقائية. (عبد الفتاح محمد وهيبة، 1971: 150.) وإذا كانت الأجزاء الشمالية من حوض البحر المتوسط غزيرة الأمطار كثيفة النبات غزيرة الإنتاج الزراعي، فإن سواحله الشرقية والجنوبية من أكثر أجزاء هذا الحوض جفافا في فصل الصيف وأقلها أمطارا.

وهكذا تنحصر الجزائر فلكيا –باعتبارها من الأجزاء الواقعة جنوبي البحر المتوسط- بين خطي عرض 19 درجة و37 درجة شمالا، لهذا فهي منطقة معتدلة شمالا وحارة في الجنوب.

ففي الشمال نجد الطقس معتدلا في مختلف الفصول، وعلى الساحل أكثر اعتدالا من الداخل، فدرجات الحرارة السنوية المتوسطة تتراوح بين 11 درجة شتاء 28 درجة صيفا، لذلك يتركز أغلب السكان في هذا الإقليم، كما أن الأمطار التي تحتاجها الأرض لإنبات مختلف الغلال متوافرة أحسن من الداخل، وبخاصة انعدام الصقيع شتاء والحرارة الشديدة صيفا، وهما من أكبر معوقات نمو النبات، وتتراوح كميات التساقط المطري في هذه المنطقة بين 400 مم في بعض الجهات و800 مم في جهات أخرى، وبخاصة الشمالية الشرقية من الوطن التي قد تتجاوز الألف متر أحيانا؛ لذا كانت منطقة الشمال منطقة جذب للسكان.

وتنال الجهات الشمالية الشرقية من الجزائر أمطارا أفضل من الجهات الغربية، مما يكسب الأرض خضرة ونضارة للناظرين وبخاصة منطقة القبائل، "والسبب يكمن بصفة خاصة في المناخ. فمن هذا المناخ المتغير باستمرار يأتي غنى البلد. فهذا المناخ المتسم بالشمس وبالمطر في الوقت ذاته، هو الذي يعطي لقمم القبائل ثوبها المخملي الأخضر. وهو الذي يجعل المنطقة –حين تنظر إليها- تعطيك صورة البحر. فالقبائل لا يحل بها الجفاف مثلما هو الحال عند أهل الجنوب... فماء السماء لا ينقصهم أبدا، وطقوس استحضار المطر قليلة الاستعمال بمنطقة القبائل." (René Maunier, 1930: 94-95.)

إن شدة الحرارة في الجنوب واختلاف درجة الحرارة بين الليل والنهار نتيجة المناخ القاري، وحيث تمثل الصحراء أزيد من 80 في المائة من المساحة الكلية، تعتبر الأرض بقاعا شاسعة خاوية من البشر لافتقارها إلى الماء الذي بغيره لا ينمو النبات، عماد حياة الإنسان والحيوان. كل هذا أدى إلى قسوة الطبيعة وفقر المنطقة من حيث الزراعة، وبالتالي التقليل من النشاط البشري. وأصبح السكان يتمركزون حيث الماء في الواحات النادرة التي تتواجد الأراضي المنخفضة وحول الأودية.

وتقسو الطبيعة فترسل رياحا وزوابع تخنق الأنفاس وتردم ما صنعه الإنسان، أما شتاء فتنخفض درجة الحرارة إلى ما دون العشر درجات مئوية، والمدى الحراري كبير بين الليل والنهار: 22°م، ولأمطار الخريف أهمية بالغة على الجهات الشمالية من الصحراء حيث ينمو نبات إستبسي صالح لرعي الحيوان.

وتندر الأمطار عامة في الصحراء الجزائرية، التي هي إن سقطت كانت فجائية تجرف ما حول الأودية من كائن حي. وللأمطار أثرها السيئ على الإنسان عندما تكون قوية أو فجائية. لقد أدى الجفاف الذي أصاب البلاد سنين متتالية إلى أن نسي الإنسان سيلان المياه؛ فبنى مسكنه على ضفاف الأودية، بل وحتى في مجاريها نفسها، بالطين والمواد الهشة، دَيْدَنُه حماية نفسه من لفحات الشمس وهبوب العواصف الرملية ولسعات الحشرات السامة، أما الأمطار فلا حساب لها عنده، فإذا ما سقطت، وهي في الغالب فجائية تسربت بقوة بين المباني الطينية ومسحت ما وجدت في طريقها، وهذا ما حدث مرارا في منطقتي أدرار وتمنراست. فكان الفيضان عظيما والخطر كثير الضرر، وعُدّت المنطقتان منكوبتين.

وفي بلدة عين الصفراء الواقعة في الجنوب الغربي الجزائري، بين التل والصحراء، يفيض واديها من حين لآخر؛ فيدمر ويجرف ما في طريقه. حيث يلتقي في البلدة واديان: واد المُوَيْلح وواد البُرَيْج، ويُكَوِّنان معا وادي عين الصفراء المتجه جنوبا كرافد من روافد

وادي الناموس. فقد بنى الفرنسيون حيا أوربيا على الضفة اليسرى لهذا الوادي، والمكان كان مجرى قديما تحول عنه الوادي بمرور الزمن. وقد دمر الوادي هذا الحي في 1904/10/21، وأحدث أضرارا مادية وبشرية كبيرة، وقد كانت "إيزابيل إيبرهاردت" Isabelle Eberhardt من ضحايا هذه الحادثة، وهي صحفية أسلمت وتزوجت من أحد الجزائيين، تركت لنا كتابات عديدة عن الجنوب الجزائري في ذلك الوقت. (Mohamed Rochd, 1991: 09).

وهذا ما حدث أيضا في كثير من جهات الوطن الأخرى، وما زلنا نتذكر أحد هذه الأمثلة الجلية فيما حدث في فيضان باب الواد بالجزائر العاصمة في 11 نوفمبر 2001، حين جرفت المياه المنحدرة نحو البحر، والتي تتبعت في الواقع مسار الوادي القديم، جرفت المساكنَ والمدارسَ والأسواقَ والمتاجرَ، وأغرقت وشردت كثيرا من الأفراد والأسر، وكانت المأساة حقيقة ظاهرة.(صحيفة الجمهورية أيام 11 و12 و13 نوفمبر 2001).

أما في مدينة سيدي بلعباس فإن وادي مَكَّرّة يخرب من حين لآخر ما تبنيه السواعد طول السنة. وقد خرب في أكتوبر من سنة 2000 ما قيمته من خسائر كل الولاية أزيد من 40 مليار سنتيم جراء الفيضان. وقد دمر عدة حواضر يمر بها هي رَاسْ الْمَا وبُوشَبْكَة وسِيدِي لَحْسَنْ وسِيدِي خَالَدْ وسِيدِي بَلْعَبّاسْ.(صحيفة الجمهورية 13 و14 نوفمبر 2001) وقامت الدولة بصرف 53 مليار سنتيما لتتقية مجراه في أكتوبر من سنة 2001.

كما ضرب الفيضان مدينة عنابة بالشرق الجزائري، جراء الأمطار الغزيرة التي تهاطلت طيلة يومي الجمعة والسبت 21 و 22 سبتمبر 2007. من حيث يتجمع في المدينة وادي الغراب وتازولت مما أدى إلى غرق عدة أحياء، "وقد أدى ارتفاع المياه المتسربة على حافة الوادي المخترق للمدينة إلى غمر مئات المنازل."(صحيفة الشروق اليومي، الأحد 23 سبتمبر 2007، ص: 5).

ومن عناصر المناخ التي تسبب أضرارا بالغة للإنسان في ممتلكاته ومزروعاته وطرق مواصلاته، هبوب الرياح الهوجاء والأعاصير المُحَملة بالرمال. فهي تدمر المباني والأشجار من جهة، وتغطي الحُبَيْبات الرملية المحمولة المساحات الزراعية وطرق المواصلات المعبدة، مما يفرض على الإنسان مواجهة الكوارث ببناء كاسرات الرياح وتشجير الأرض لإمساك التربة وإعادة تتقية الطرق، حيث تُسَخِّر بلديات الجنوب فِرقاً دائمة لمراقبة الطرق وتنظيفها من الرمال. كما أن السد الأخضر الذي أطلق مشروعه الراحل هواري

بومدين الذي بناه شباب الخدمة الوطنية مظهر من مظاهر مقاومة الإنسان للمظاهر الطبيعية الخطيرة.

وقد تغلبت بعض عناصر المناخ على أكبر قوة اقتصادية وتكنولوجية عالمية وهي الولايات المتحدة الأمريكية خلال ما يصيبها من عواصف وأعاصير أهمها أعاصير التورناد Tornades بواد المسيسبي وما ينجم عن ذلك من أضرار في المباني والأشجار وهلاك للإنسان والحيوان.(عبد الفتاح محمد وهيبة، 1971: 103- 104.)

والإنسان بدوره كثيرا ما يكون عامل هدم وتغيير لبعض المظاهر الطبيعية. وهاهو الاحتباس الحراري يصيب الكرة الأرضية كلها، والجزائر المتواجدة بالقارة الإفريقية هي جزء من هذه البسيطة المترامية الأطراف، ويعود سبب هذا إلى الإنسان، الذي لوث البيئة بمخلفات وسائل النقل ودخان معامل ومصانع المواد الكيماوية وبخاصة التفجيرات النووية والتجارب الذرية التي تقوم بها الدول الكبرى منذ سنة 1945، مما يزيد في الإشعاع الذري في الجو.

والاحتباس الحراري هو الزيادة التدريجية في درجة حرارة أدنى طبقات الغلاف الجوي المحيط بالأرض، كنتيجة لزيادة تبعات غازات الصوبة الخضراء Green house gases وقد بدأ هذا منذ بداية الثورة الصناعية (www. Islamonline. Net--- le 21-11-2000)

أدى هذا الأثر السلبي للإنسان نفسه إلى التغيير الحراري في الأرض. وها هي الجزائر تعيش حرارة قاسية تتجاوز المعهود، فتصل في المناطق الشمالية إلى 40 درجة مئوية وطوال أيام عديدة، مثلما حدث في تيزي وزو وفي قسنطينية شهري جوان وجويلية 2007، فلا عجب بعد الآن أن نرى شخصا يحمل مظلة شمسية على رأسه اتقاء حرارة الشمس.(جريدة الشروق اليومي ليوم 28- 7- 2007.)

ولصفاء الجو وبياض سحابه تبيض نفوس أهل الصحراء، فهم رحماء كرماء، يقرون الضيف ويساعدون التائه، ويَعْتَبرون ذلك شرفا كبيرا، ويقدمون للضيف أحسن ما عندهم. وأفضل ما لديهم وهو الكسكسى كمأكل، والشاي في جهة أو القهوة في جهات أخرى كمشروب. ويشترك معهم في صفة الكرم سكان السهول المرتفعة. وهي صفة من صفات البداوة، عكس البخل الذي يتصف به سكان الحضر بسبب تعقد حياة المدينة عكس بساطة الحياة في الصحراء، كما أن قسوة ظروفها جعل سكانها يواجهون ذلك بصفات حميدة كالصبر والعمل الدائم وإغاثة التائه واستقبال الضيف.

كما أن لحرارة الشمس والرياح الهوجاء أثر في ألوانهم ونفوسهم، فوجوههم تتميز بالسمرة وعيونهم مضغوطة خوفا من وهج الشمس ومن حبيبات الرمل السابحة، ولباسهم

خفيف أبيض يتلاءم وجو المنطقة، وهم يلبسون عباءات وعمائم بيضاء تعكس عنهم أشعة الشمس الحارقة، وفي الشتاء يلبسون الجلباب الصوفي أو المصنوع من الوبر لحماية أجسادهم من لفحات برد الشتاء. وقد ورثوا كل ذلك عن أسلافهم الذين جربوا مناخ المكان فأعدوا له عدته.

أما السهول المرتفعة الواقعة بين الأطلس التلي والصحراوي والتي ترتفع إلى ما يزيد عن الألف متر، فتتميز بمناخ قاري، شديد البرودة في ليل الشتاء شديد الحرارة في نهار الصيف. وأكثر ما يؤثر على الإنسان في هذه المنطقة هو تواجد الصقيع الذي يغطي سطح الأرض شتاء وبخاصة في لياليه الطويلة، وهو عامل مؤثر سلبا على النباتات الصغيرة وعلى أشجار الفاكهة. ومناخ هذه المنطقة يعود إلى جبال الأطلس التلية التي تفصله عن الساحل، مما يمنع عنه المؤثرات البحرية المشبعة بالرطوبة القادمة من الشمال والشمال الغربي، ويجعله ذا مناخ قاري وشبه جاف.

ويقل تساقط الأمطار في هذه الجهات وينحصر ما بين 300 مم شمالا و200 مم جنوبا. لذا كانت النباتات الإستبسية هي الأنسب لهذا المناخ القاسي، كما أنه المناسب لزراعة الحبوب المقاومة للحرارة. وقد كان لتدخل الإنسان أثره السلبي حين حول مناطق رعوية إلى زراعات للحبوب غير مضمونة النتائج، فكان بهذه الطريقة، عاملا مدمرا للطبيعة حين عمل على تعرية التربة من غطائها الطبيعي، فسهل ذلك على الرياح عملها في التعرية، وتم تنقل الرمال من مكان لآخر، مما ضاعف من زيادة الجفاف والتصحر الزاحف نحو المناطق التلية.

وقد أشار إلى ذلك وزير الفلاحة الجزائري منتقدا بشدة سياسة الاهتمام بزراعة القمح. وقال إنها من أهم أسباب التصحر في الجزائر خاصة وأن الأراضي الشاسعة المخصصة للقمح تعمل بالتناوب –سنة بعد سنة- واقترح الاهتمام بالزراعات المضمونة وبالأشجار المثمرة.(جريدة الشروق اليومي ليوم 28- 7- 2007، ص:6.)

كما أن انحصار المنطقة بن الأطلسين قد أدى إلى عدم صرف مياه الأمطار فتكونت السبخات الملحية، أهمها الشط الشرقي والشط الغربي وشط الحضنة والزاغز الشرقي والزاغز الغربي.

ولم تقتصر ظاهرة انتشار السبخات على منطقة السهول المرتفعة، بل شمل ذلك المناطق التلية الشمالية الغربية هي أيضا، والتي ينتشر بها الجفاف؛ فأصبحت هذه السبخات عامل توسع للأراضي الملحية على حساب الأراضي الفلاحية، مثلما هو الحال في سبخة وهران التي تطغى كل سنة على جزء من الأراضي الفلاحية المجاورة.

وقد أصبح الرعي حرفة لا مفر منها في السهول المرتفعة؛ إذ أن الأراضي غير مهيأة للزراعة، لأنها منحدرة وتتطلب تهيئتها للزراعة نفقات باهضة، وتتميز تربتها بالفقر وقلة السمك لشدة التعرية الريحية، "وبعض الرعاة في شمال إفريقيا أحسن حالا من الزراع، لأنهم اتبعوا حرفة أكثر ملاءمة للبيئة."(محمد السيد غلاب، 1969: 89.) ولذلك فإن الزراع ومربو الماشية أو الحضر والبدو يعيشون جنبا إلى جنب وقد لاءموا حياتهم بحيث يكمل بعضهم بعضا في الإنتاج الزراعي والحيواني.

ويحدد المناخ ظروف الجماعة، فموسم الزواج يكون عادة عند سكان الريف صيفا بعد الانتهاء من قطف الغلال والحصاد واعتدال الجو، كما أن سكان المدن يختارون الفصل نفسه لتعطلهم عن العمل، وتحررهم من المدارس بعد أن ينال أبناؤهم العطلة الصيفية الطويلة من شهر جوان إلى شهر سبتمبر من كل سنة.

ولا يفوتنا في هذا المجال أن نذكر تقسيما شعبيا للمناطق الجزائرية الثلاث المعروفة، من الشمال إلى الجنوب: (التلية- السهول المرتفعة- الصحراء). فقد قسمها الرجل الشعبي وعبر عنها بما يمسه في عيشه ومعاشه وما يمس حياته اليومية، وجمعها في العبارات التالية:

- خَطْ السّمِيدْ.
- وخَطْ الجّلِيدْ.
- وخَطْ الجّرِيدْ.

فخط السّميد(طحين القمح) هو المنطقة التلية المعروفة بإنتاج القمح في السهول الساحلية منها والداخلية.

وخط الجّليد يشمل السهول المرتفعة التي يظهر بها الصقيع(الجّلِيدْ) شتاء بسبب مناخها القاري.

وخط الجّريد(سعف النخيل) هي المنطقة الصحراوية في الجنوب؛ حيث النخيل المنتج للتمور، وهو المنتوج الأساس للسكان لتوفر الظروف المناخية المتمثلة في شدة الحرارة، أما المياه فتوفرها جذور النخلة الممتدة في باطن الأرض.

ويبين الإحصاء العام الذي أجري سنة 1998 توزع السكان توزعا عرضيا مطابقا لهذا التقسيم بين الشمال والجنوب، وهو مناخي في أساسه.

ففي القسم التلي حيث اعتدال الحرارة، تبلغ الكثافة السكانية 245 نسمة في الكيلومتر المربع الواحد. وفي الجهات الداخلية الواقعة شمال الأطلس الصحراوي تبلغ الكثافة 88 نسمة في الكيلومتر المربع، وهي منطقة رعوية في أساسها. وفي الجنوب

الكبير تبلغ الكثافة السكانية 1.35 نسمة في الكيلومتر المربع الواحد.(بلغ عدد السكان الجزائريين سنة 1998: 29100863 نسمة. عن: Collections statistiques)- No:97, Recensement général de la population et de l'habitat 1998.: 5.) وهذه الأخيرة تعتبر منطقة طرد للسكان.

3- اختلاف المسكن:

تختلف المساكن باختلاف الموقع والظروف الجغرافية المحيطة به. ففي الريف نجد القرى على رؤوس الجبال مثلما هو الحال في بلاد القبائل، وقد بنيت المداشر في هذه الأمكنة بغرض الدفاع عن سكانها ضد أي هجوم قد يقع من الأعداء. وهناك مساكن متفرقة تفصل بينها الحقول والمزارع في السهول الواطئة، حيث لا يفكر السكان إلا في أراضيهم دون الاهتمام بشيء آخر ما عدا اتصالهم بالسوق لبيع منتجات أراضيهم وشراء حاجياتهم. وتنتشر في هذه السهول الخصبة بنايات عصرية مبنية بالحجارة والآجر والإسمنت، وتبنى سقوفها أيضا بالإسمنت أو القرميد، ويبقى مأوى الحيوان بالجوار. وعموما فإن الوسائل الحديثة تزحف شيئا فشيئا نحو الدور البسيطة.

وفي منطقة السهول المرتفعة تنتشر الخيام بمناطق الرعي، حيث يقطن مربو الماشية الذين يتنقلون من مكان لآخر بحثا عن الماء والكلإ لمواشيهم، لذلك كانت الخيام أسهل عندهم في طيها وحملها عند التنقل على الحيوان أو على السيارة ونصبها عند المقام. فالحرفة هي التي فرضت هذا النوع من المساكن وهي المناطق القليلة الأمطار.

وتنسج الخيمة من شعر الماعز المخلوط بالصوف ووبر الإبل، وهي مواد متوفرة محليا، وتتكون الخيمة الواحدة من عدة قطع يدعى الواحد منها "فْلِيجْ"، يُجَدَّد باستمرار حتى لا يتآكل وتنعدم فعاليته. وتُرفع الخيمة بعمود رئيسي في وسطها تنحدر الخيمة من على جوانبه، مما يسهل انسياب قطرات المطر. وتقسم الخيمة إلى شقين يخصص أحدها للضيوف، أما إذا كان صاحب الخيمة مُوسِراً فيُخصِّص خيمة مستقلة للضيوف. ومن الاحتياطات الواجبة في فصل الشتاء هو إحاطة الخيمة برواق أخدودي يمثل مجرى لمياه الأمطار الساقطة من أعلى الخيمة أو القادم من المرتفعات المجاورة، فيمنعها من التسرب إلى داخل الخيمة.

وقد أدخل ساكنو الخيام الشاحنة مكان الحيوان كوسيلة لنقل الأمتعة أو الماشية ونقل صهاريج المياه، ومن البدو من بنى بيتا بسيطا واحتفظ بالخيمة لينتقل بها بين الحين والآخر إلى مواطن جديدة تتوفر على الكلإ ليعود إلى بيته الحجري مرة أخرى.

وفي القسم الجنوبي الغربي من الجزائر وابتداءً من الأطلس الصحراوي تنتشر القرى المسماة بـ "القصور"، حيث تتوفر المياه الباطنية، وهي مبان متقاربة متلاصقة، بها أزقة مغطاة منعا لدخول الأشعة الحارة صيفا. وهي عبارة عن تجمع للمساكن مرتبط ببعضه البعض. ويخصص القسم الأرضي من المسكن للحيوانات والأدوات الفلاحية. ويوجد البستان بالقرب من المنزل، حيث يزرع الفلاح أرضه في قطع من الأرض مفتتة على شكل مربعات أو مستطيلات أو مثلثات يدعى الواحد منها: "قَمّونْ."(ملاحظة ميدانية ومعايشة للمكان).

وتختلف المباني من منطقة لأخرى بحسب طبيعة الموقع، فتبنى بالتربة إذا كانت في السهول وبالحجارة إذا كانت قريبة من الجبال. وتؤثر الأحوال الجوية على شكل المسكن، ففي السهول المرتفعة والواحات حيث تقل الأمطار نجد سقوف المنازل مبنية بالطوب المخلوط بالتبن. أما في المناطق الشمالية حيث يكثر التساقط فسقوف منازلها مائلة لصرف المياه والثلوج حتى لا تثقلها فتنهار.

وهناك مساكن تغطى بالقرميد المصنوع محليا، وقد أخذه السكان عن الرومان، وتتميز هذه المساكن هي أيضا بسقوف مائلة. وهناك مساكن تقوم على الطراز الحديث، فتتكون من طابقين وتحتوي على مختلف الاحتياجات، وتبنى بجوارها مساكن لعمال المزرعة إذا كانت ترتبط بملكيات واسعة، كما كان في العهد الاستعماري. وقد غيرت الثورة الزراعية من هذا الوجه فبنت قرى فلاحية أو رعوية لتوطين السكان، وهي ذات نمط موحد.

أما المدن فقد أصبحت تزداد سكانا يوما بعد يوم، وتنمو بشكل خطير لتركز الصناعة والموقع الملائم على الساحل. وتنوعت المدن من عواصم، كالجزائر العاصمة السياسية وعواصم الولايات كوهران وقسنطينة وعنابة. ومدنا صناعية كسكيكدة وآرزيو وعنابة وبجاية. وهناك موانئ للصيد البحري كالغزوات ومستغانم والعاصمة والقالة.. إلا أن بعضها أقل سكانا من غيرها نظرا للمورد القليل الآتي من الحرفة. "والمدينة ظاهرة حضارية ذات كيان ملموس في جغرافية الأرض، فهي بذلك ظاهرة اجتماعية كذلك، ولكنها تختلف عن الظاهرات الطبيعية في أنها تحمل طابع الإنسان وحضارته، تتجلى فيها خصائص الحضارات البشرية المختلفة في فترات التاريخ المختلفة، فهي مظهر حضارات الأمم وثقافتها."(محمد السيد غلاب، 1969: 450.)

والجزائر الواقعة على الضفة الجنوبية للبحر المتوسط الذي يتوسط العالم القديم والذي ظهرت به أغلب الحضارات قديما وحديثا، تعرضت للصدام حينا وللتبادل

الحضاري السلمي حينا آخر من قبل عدة أقوام غازية أو مستقرة، تختلف عن بعضها البعض شرقية كانت أم غربية، تركت كلها جانبا من التأثير على مدن الساحل بخاصة.

كما وقع حديثا تغير في نمط توزيع السكان بعد تقدم المجتمع البشري تقنيا وبلوغه مستوى معينا من التنظيم الاقتصادي، فقد أصبح للثروات الطبيعية أثر في هذا التوزيع، فاستخراج البترول والغاز الطبيعي خلق كثافة سكانية بتجمع العمال الوافدين من مختلف الجهات، وأكبر دليل على ذلك هو مدينة حاسي مسعود في الصحراء الجزائرية.

وقد أدى التوسع العمراني في كل جهات الوطن وبخاصة في المدن الكبرى الشمالية إلى القضاء على التربة. فقد التهمت المدن في نموها وانتشارها مساحات واسعة من الأراضي الصالحة للإنتاج الغذائي، في الوقت الذي زاد فيه السكان من 12 مليون سنة 1966 إلى أكثر من 32 مليون نسمة سنة 2007. ويعتبر سهل متيجة أفضل نموذج في هذا الميدان.

الخاتمة

هكذا تؤثر النظم الجغرافية على الحياة الاجتماعية وتوجهها وجهة تخالف غيرها من المناطق الأخرى، وللمناخ والتضاريس أثر كبير في توزيع الإنسان وتسهيل أو تعقيد حياته، ثم إن اختلاف الظروف الجغرافية تؤدي إلى اختلاف المنتوج من منطقة لأخرى. وللمسكن خصوصيات تختلف حسب المكان والزمان، وميدان التأثير والتأثر متبادل بين الطبيعة والإنسان سلبا وإيجابا.

والجزائر نموذج ثري في هذا المجال، لتعدد ظروفها الطبيعية بين الشمال والجنوب، بامتداد مساحتها الكبيرة طولا(2000 كلم) وعرضا، فهي تمتد من المنطقة الساحلية المعتدلة شمالا فالمنطقة الداخلية المجاورة لها، فالسهول المرتفعة(الهضاب العليا) في الوسط بامتداد عرضي بين الشرق والغرب، ثم الصحراء المترامية جنوبا(2 مليون كيلومتر مربع)؛ كل هذا أكسبها تنوعا في المناخ والتضاريس ونوعية المسكن.

المراجع:

1- بيير رينوفان وجان باتيست دوروزيل، مدخل إلى تاريخ العلاقات الدولية، ترجمة فايز كم نقش، منشورات البحر المتوسط، منشورات عويدات، بيروت- باريس، الطبعة الثانية، 1982. 650 صفحة.

2- جيمس فيرجريف، الجغرافيا والسيادة العالمية، ترجمة علي رفاعة الأنصاري، مكتبة النهضة العربية، القاهرة 1956. 332 صفحة.

3- حلمي شعراوي. إفريقيا قضايا التحرر والتنمية، دار الثقافة الجديدة، القاهرة 1981.

4- حليمي عبد القادر علي، جغرافية الجزائر، مطبعة الإنشاء، دمشق 1968. 322 صفحة.

5- طراحة زهية، فضاء الأنثى/الذكر في الحكاية القبائلية العجيبة، أطروحة دكتوراه دولة (مخطوطة)، قسم اللغة العربية بجامعة الجزائر، 2005/2006. 509 صفحة.
6- عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، المكتبة التجارية الكبرى بمصر، بدون تاريخ. 588 صفحة.
7- عبد الفتاح محمد وهيبة، جغرافية الإنسان، دار النهضة العربية، بيروت 1971. 564 صفحة.
8- عبد القادر خليفي، من الموروث الثقافي الجمعي المغاربي، دار الأديب، وهران 2006. 101 صفحة.
9- محمد السيد غلاب، البيئة والمجتمع، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة 1969.. 566 صفحة.
10- نور الدين الموادان، ملامح من الحياة اليومية بوجدة وبواديها خلال القرن التاسع عشر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة محمد الأول وجدة، 2001. 233 صفحة.

الصحف:

- صحيفة الجمهورية الصادرة بوهران أيام: 11 و13 و14 نوفمبر 2001- عنونت صحيفة الجمهورية صفحتها الأولى يوم 11 نوفمبر كالتالي: "أمطار الخريف الأولى تحدث كارثة وطنية." وأوردت الصحيفة نفسها والصادرة بتاريخ 13نوفمبر 2001 أن عدد ضحايا مأساة باب الواد بلغ 579 شخصا. وأنه قد تقرر "حداد وطني لمدة ثلاثة أيام ابتداء من هذا اليوم."
- صحيفة الشروق اليومي، 28 جويلية و23 سبتمبر 2007.

المراجع باللغة الفرنسية:

-Collections statistiques N°97, *Recensement général de la population et de l'habitat 1998*, Office national des statistiques.
-Mohamed Rochd, *Isabelle Eberhardt* , ENAL, Alger1991. 364 Pages.
-Gendre. F. *La région des ksour du sud oranais*, revue Tunisienne, No/81, Tunis.
-Montesquieu, *De l'esprit des lois*, volume:1, Cédès éditions, Tunis, octobre 1994.
-René Maunier, *Mélanges de sociologie nord africaine*, ed Librairie Félix Alcan, Paris, France 1930.
- www. Islamonline. Net--- le 21-11-2000.
-Encarta 2007.